

القارئ: أعود بالله من الشّيطان الرّجيم: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةَ اسْجَدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكَبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} (٤) وَقُلْنَا يَا آدَمَ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغْدًا حَيْثُ شَئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} (٥) فَأَزَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقْرٌ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينَ} (٦) فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ} (٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدًى يَأْتِيَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٣٩-٤٠].

الشيخ: أحسنت، لا إله إلا الله.

قوله سبحانه: {وَإِذْ قُلْنَا} مثل قوله: {وَإِذْ قَالَ} [البقرة: ٣٠] يعني: واذكر حين {قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةَ اسْجَدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا}، وقصة آدم وابليس قد جاءت في القرآن في آيات وسور عديدة، هذا أول موضع ذكر فيه أمر الملائكة بالسجود وامتناع إبليس، جاء في سورة الأعراف، وفي الإسراء، وفي الكهف، وفي سورة طه، وفي سورة -قبل ذلك- الحجر، وفي سورة ص.

وهي تذكر في هذه الموضع بإجمال و اختصار، وفي بسط، ويدرك في كل موضع ما لم يذكر في الموضع آخر، وإن كانت المعاني الأصلية في الموضوع تتكرر.

وأمر الملائكة بالسجود لآدم هنا فصله الله تعالى - في سورة الحجر، وفي سورة ص، وفي سورة الأعراف، فإن الله تعالى - أخبر الملائكة بأنه خالق بشراً من طين، من صلصال، من حما مسنون، وأمرهم - سبحانه - إذا سواه ونفخ فيه الروح أن يسجدوا له، إذا قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةَ اسْجَدُوا}، هذا فيه إجمال {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ} (٧١) فإذا سويته ونفخت فيه من روحه فقعوا له ساجدين} [ص: ٧١] هذا هو الأمر بالسجود، {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةَ اسْجَدُوا}، هذا الأمر متعلق على خلق آدم والنفخ فيه من روحه سبحانه.

فلما تحقق ما أخبر الله به بادر الملائكة بالسجود، {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} [الحجر: ٣٠] {قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةَ اسْجَدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا}.

{إِلَّا إِبْلِيسَ}، وإِبْلِيسُ لِيُسْ هُو مِنَ الْمَلَائِكَة، لَكِنْ كَانَ مَعَهُمْ؛ لَأَنَّ اللَّهَ قَالَ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ: {كَانَ مِنَ الْجِنِّ} [الْكَهْفٌ: ٥] فَإِبْلِيسُ هُو أَبُو الْجِنِّ، كَمَا أَنَّ آدَمَ أَبُو الْإِنْسَانِ، {وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِنْسَانًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمِّاً مَسْتَوْنَ} (٢٦) وَالْجَانُ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلٍ مِنْ نَارِ السَّمْوَمِ [الْحَجْرٌ: ٢٧] فَالْجَنُّ خَلَقُوا مِنْ نَارٍ، وَاعْتَرَفَ إِبْلِيسُ أَنَّهُ مَخْلوقٌ مِنْ نَارٍ، وَافْتَخَرَ بِذَلِكَ عَلَى آدَمَ.

وَقَالَ -سَبَحَانَهُ- فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: {إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَيْ} امْتَنَعَ، أَبَيْ وَ{اسْتَكْبَرَ}، حَمَّلَهُ عَلَى الإِبَاءِ: الْإِسْتَكْبَارُ، {أَبَيْ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}.

وَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ تُوبِيَخَهُ إِبْلِيسَ عَلَى امْتِنَاعِهِ، وَقَدْ ذَكَرَ هَذَا الْمَعْنَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَفِي سُورَةِ الْحَجْرِ وَفِي سُورَةِ صِّ، {قَالَ} يَا إِبْلِيسَ {مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمْرَتَكَ} [الْأَعْرَافُ: ١٢] {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالَمِينَ} [ص: ٧٥] فَكَانَ هُنَاكَ تُوبِيَخُ مِنَ اللَّهِ إِبْلِيسَ وَاحْتِجاجٌ مِنْ إِبْلِيسِ لِنَفْسِهِ، يَقُولُ: {خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [ص: ٧٦] {قَالَ فَأَخْرَجَ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ} (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّي فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَعْثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} [ص: ٨٠-٧٧]

فَفِي هَذِهِ السُّورَةِ فِيهَا اخْتِصارٌ، فِي الْقَصَّةِ اخْتِصارٌ، فَيُلَاحِظُ هُنَاكَ أَنَّ مَضْمُونَ هَذِهِ الْآيَاتِ سَابِقٌ لِمَضْمُونِ الْآيَاتِ الْمُتَقْدِمَةِ؛ لَأَنَّ الْأَمْرَ بِسَجْدَةِ الْمَلَائِكَةِ كَانَ فَوْرًا خَلَقَ اللَّهُ لَآدَمَ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ {فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ [الْحَجْرٌ: ٢٨، ٢٩] يَعْنِي: نَفَخَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، سَوَاهُ وَنَفَخَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ فَوْرًا مَا تَحَقَّقَ الشَّرْطُ، فَقَوْلُهُ -سَبَحَانَهُ- لِلْمَلَائِكَةِ: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [الْبَقْرَةُ: ٣٠] كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ، يَعْنِي كَانَ بَعْدَ أَمْرِهِمْ بِالسَّجْدَةِ وَبَعْدِ سَجْدَهُمْ، فَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ فِي الْمَعْنَى.

فَأَظَاهَرَ اللَّهُ فَضْلَ آدَمَ أَوْلَأَ بِأَمْرِ الْمَلَائِكَةِ بِالسَّجْدَةِ لَهُ، وَأَظَهَرَ فَضْلَهُ ثَانِيًّا بِتَعْلِيمِهِ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ. ثُمَّ أَسْكَنَ اللَّهُ آدَمَ وَزَوْجَهُ الْجَنَّةَ وَابْتَلَاهُمَا بِالنَّهِيِّ عَنِ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ {وَقُلْنَا يَا آدَمَ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ}، هَذَا بَدْءُ الْابْتِلَاءِ، هَذَا أَوْلُ ابْتِلَاءٍ ابْتُلَى بِهِ الْإِنْسَانُ.

{فَأَزَّلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقْرٌ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}، وَقَدْ فَصَلَ اللَّهُ هَذَا الْمَعْنَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، كَمَا فِي سُورَةِ طَهِ، أَزَّلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْ مَكَانِهِمَا الَّذِي أَسْكَنَهُمَا اللَّهُ فِيهِ وَذَلِكَ بِالْوَسُوسَةِ: {فَوَسُوسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ

لِيُبَدِّي لَهُمَا مَا وُرِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَّاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَا كُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ } [الأعراف: ٢٠] فَأَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ {فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَّتْ لَهُمَا سَوَّاتِهِمَا } [الأعراف: ٢٢] إِلَى آخر سورة الأعراف.

ثم انتهى الأمر إلى أن الله أمر إبليس وحواء وآدم وزوجه، أمر الجميع بالهبوط إلى الأرض، {فَأَزَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}، العداوة بين آدم، بين إبليس وآدم وذريته، إبليس وذريته وآدم وذريته، بينهما العداوة منذ امتنع إبليس من السجود لآدم، {أَفَتَخِدُونَهُ وَذُرِّيَّتِهِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ} [الكهف: ٥٠] هذه العداوة بدأت، إبليس الأول والشيطان الأول، وذرية إبليس - الكفرة من الجن - هم الشياطين، شياطين الجن.

فلما كان من آدم ما كان وزوجه من الأكل من الشجرة، ندم على ذلك، والله أنكر عليهما {وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَاكُمَا عَنْ تُلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقْلَلَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ } [الأعراف: ٢٢] قال الله في هذه السورة: {فَتَلَقَّى آدُمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ} [آل عمران: ٣٧] وفي الآية أخرى: {قَالَا} .. هذه هي الكلمات التي تلقاها من ربّه وعلمه إياها {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [٢٣] قال اهبطوا [الأعراف: ٢٢، ٢٣] وهنا: {فَتَلَقَّى آدُمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ}، وفي الآية الأخرى في سورة الأعراف: {ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} [١٢١، ١٢٢] [طه: ١٢٢] {وَعَصَى آدُمُ رَبَّهُ فَغَوَى} (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} [طه: ١٢١، ١٢٢] المصود أن قصة آدم وإبليس لها شأن، وفيها فوائد لا يتسع المقام لتعدادها، لكن على كلها تتفق..، يعني فيها الدلالة على كرامة آدم وتقدير الله له، وعلى عداوة إبليس لآدم وذريته. وفي هذه القصة تحذير للذرية من طاعة هذا العدو وذريته، {أَفَتَخِدُونَهُ وَذُرِّيَّتِهِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بَعْضُهُمْ لِلظَّالِمِينَ بَدَّلَ} [٢٤]. الله المستعان.